سرد العجيب في الأدب العربي (العجيب في اللغة والاصطلاح)

إعداد

د. رضا علي بشر

الملخص:

يحاول هذا البحث دراسة (سرد العجيب في الادب العربى). ويقصد بالسرد الكيفية التي يقوم بها الراوي في التقديم الفني لتلك الحكايات عندما يعرض أحداثها وما يقع أثناءها من خلال وجهة النظر الخاصة به. ويصور الشخصيات التي تقوم بتلك الأفعال خلال فضاء معين يشكله من إحداثيات الزمان والمكان التي يحتمل ان تقع فيها تلك الأحداث. ويدرس هذا البحث ضربا من المسرودات يمكن أن نطلق عليه الحكايات العجيبة؛ ذلك لأنها تشتمل على ما يندرج تحت دائرة العجيب؛ أي الخارق للعادة والمغاير للمألوف.

Abstract:

This research attempts to study (Narration of the Wonderful in Arabic Literature).Narration means how the narrator performs the artistic presentation of these tales when he presents their events and what happens during them through his own point of view. It depicts the characters who perform these actions within a specific space that it forms from the coordinates of time and space in which these events are likely to occur. This research studies a type of narrative that we can call wonderful tales.that is because it includes what happens in the zone of the wondrous; Any supernatural and unusual.

Keywords: Narration, Wonderful, tales,

المقدمة

يحاول هذا البحث دراسة (سرد العجيب في كتاب خريدة العجائب وفريدة الغرائب لابن الوردي ت ٧٤٩هـ). ويقصد بالسرد الكيفية التي يقوم بها الراوي في التقديم الفني لتلك الحكايات عندما يعرض أحداثها وما يقع أثناءها من خلال وجهة النظر الخاصة به. ويصور الشخصيات التي تقوم بتلك الأفعال خلال فضاء معين يشكله من إحداثيات الزمان والمكان التي يحتمل ان تقع فيها تلك الأحداث. ويدرس هذا البحث ضربا من المسرودات يمكن أن نطلق عليه الحكايات العجيبة؛ ذلك لأنها تشتمل على ما يندرج تحت دائرة العجيب؛ أي الخارق للعادة والمغاير للمألوف.

وقد ورد في لسان العرب أن "العجيب ما يتسبب في إنكار ما يرد عليك لقلة اعتياده"[١]، وقال ابن منظور أيضا "إنما يتعجب الأدمي من الشيء إذا عظم موقعه عنده وخفي عليه سببه"[٢] .

وهو أيضا ما يعرفه القزويني بقوله "إن العجيب ما يرد على العاقل من افعال بعيدة عن العادات المعهودة والمشاهدات المألوفة، لكنه لا يستعظم شيء مع قدرة الخالق"[٣]، ثم يوضح القزويني حالة العجب أو موقف التعجب بأنه "حيرة تعرض للإنسان لقصوره عن معرفة سبب الشئ او عن معرفة كيفية تأثيره فيه"[٤] .

ويلاحظ أن العجيب تتوافر فيه ثلاث صفات أو خصائص؛ أولها أنه يخرق العادات ويغاير المألوف، ويوصف أيضًا بكونه محيرًا للإنسان في معرفة سبب حدوثه وكنه تأثيره؛ ثم نضطر الى ان نعزو ذلك إلى قدرة الله سبحانه وتعالى، وينطلق

[١] جمال الدين ابن منظور (ت ٧١١هـ)، لسان العرب، الطبعة الثالثة، الحواشي لليازجي وجماعة من اللغويين، دار صادر، بيروت، ١٤١٤ هـ، ج ١، صـ ٥٨٠.

[٢] أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور، نفسه،

[٣] زكريا بن محمد القزويني(ت ١٢٨٣هـ)، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، الطبعة الأولى، مؤسسة الأعلمى للمطبوعات، بيروت، ٢٠٠٠م، صـ٦

[٤] زكريا بن محمد القزويني، نفسه،

بالتسبيح. فالعجيب كما أنه مرتبط بخرق العادة ومغاير للمألوف، هو أيضا دال على قدرة الله، ومدعاة لذكر الله وتسبيحه، تعجبا.

فالعجيب –عند المسلمين– يتنفس في جو ديني؛ لأنه دال على وجود الله وقدرته وذلك بخلاف العجائبي؛ فالعجائبي يختلف عن ذلك تماما فهو ينتهي في غالب الأحيان وبشكل سيء بالموت بطريقة مفزعة غالبا[١] ، فتجرى الحكاية العجائبية دائما في جو من الرعب وتنتهى ضرورة بحادث رهيب نتيجة الموت أو الاختفاء أو اللعنة التي تصيب البطل لذا تبدو الفظاعة خاصية للعجائبي [٢].

إن الادب الغربي زاخر بالروايات ذات الطابع العجائبي بدءا من النصوص اليونانية وصولا إلى الروايات الحديثة في الغرب [٣].

ويتخذ هذا البحث من كتاب "خريدة العجائب وفريدة الغرائب" للأديب الشاعر الجغرافي ابن الوردي الذي عاش ما بين (٦٩١ – ٧٤٩هـ) وقدم كتابه لأحد أمراء السلطة الشريفة بالقلعة المنصورية بالشام.

ويشتمل الكتاب على فصول متتالية تتضمن غرائب وعجائب البر والبحر، البلدان وعجائبها وآثارها والجزر والأنهار والجبال والنباتات والأحجار وختمه بأبواب شئ فيها علامات الساعة وأحوال القيامة..

ويلاحظ من العتبة النصية الرئيسة عنوان الكتاب "خريدة العجائب وفريدة الغرائب" أن مصنفه كان ينبغي به السبق لكل الكتب في هذا الضرب من التأليف، لذلك وصفه بالخريدة أى الفتاة البكر، والفريدة هي اللؤلؤة اليتيمة، ويقصد أن كتابه هذا ليس له نظير.ذلك على الرغم من انه قد أشار في مقدمة الكتاب أنه أفاد محتواه بالنقل من

[١] حسين علام، العجائبي في الادب من منظور شعرية السرد، منشورات الاختلاف، الجزائر، الطبعة الاولى، ٢٠٠٩م، صـ ٥٥

[٢] حسين علام، العجائبي في الادب من منظور شعرية السرد، (المصدر السابق)، صـ ٣٢

[٣] خسين علام، نفسه، صـ ٥٥

كتب عديدة سابقة في هذا المجال! منها كتاب (عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات) للقزويني وغيره.

العجيب المصطلح والمفهوم:-

العجيب لغة:-

ونقصد بذلك استعمالات العرب الفصحاء لكلمة العجيب، ويقتضي ذلك الرجوع إلى المعاجم اللغوية، وخاصة ذات السعة التى تشتمل على كم كبير من مفردات اللغة العربية مثل (لسان العرب)؛ حيث نجده يقول: " عجب: العَجْبُ والعَجَبُ: إنكار ما يرد عليك لقلة اعتياده، وجمع العجب: أعجاب؛ قال الشاعر:

يا عجبا للدهر ذي الأعجاب الأحدب البرغوث ذي الأنياب

وقد عجب منه يعجب عجبا، وتعجب، واستعجب.

والاستعجاب: شدة التعجب، وفي النوادر: تعجبني فلان وتفتتني، أي: تَصُبَانِي؛ والاسم: العجيبة والأعجوبة، والتعاجيب: العجائب لا واحد لها من لفظها ....

وقوله تعالى: {بل عجبت ويسخرون}، قرأها حمزة والكسائي بضم التاء.

قال الزجاج: أصل العجب في اللغة أن الإنسان إذا رأى ما ينكره ويقل مثله، قال: قد عجبت من كذا. وقال ابن الانباري في قوله: بل عجبت، أخبر عن نفسه بالعجب وقال ابن الأعرابي: العجب النظر إلى شيء غير مألوف ولا معتاد، وأعجبه الأمر: حمله على العجب منه...وأعجبه الأمر: حمله على العجب منه،، وعجبه بالشيء تعجيبا: نبهه على التعجب منه، وقصة عجب وشيء معجب إذا كان حسنا جدا، والتعجب: أن ترى الشيء يعجبك تظن أنك لم تر مثله.

وأمر عُجاب وعجاب وعجب، وعجيب، وعجب، عاجب وعجاب على المبالغة يؤكد به، وفي التنزيل: (إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ)، قرأ أبو عبد الرحمن السلمي: إن هذا لشيء عجَّاب، بالتشديد.

وقال صاحب العين (الفراهيدي): بين العجيب والعجاب فرق؛ أما العجيب فالعجب يكون مثله، وأما العجاب فالذي تجاوز حد العجب، وأعجبه الأمر: سره، وأعجب به كذلك، والعجيب:الامر يتعجب منه، وامر عجيب: معجب. ويقال: جمع عجيب عجائب، ومن وحد الله تعالي في عجبه وجبت له الجنة [١] .

ويلاحظ فيما يتعلق بمفهوم العجيب أن هناك تصورين يتعمقان في استعمالات العرب لهذه الكلمة: –

١–إنكار ما يرد على الإنسان لقلة اعتياده؛ حيث أن الإنسان لا ينكر بالطبع ما هو معتاد مألوف عليه، وأصل (العجب) كما سبق ذكره في المادة اللغوية السابقة؛ أن الإنسان إذا رأى ما ينكره ويقل مثله تحدث لديه حالة العجب، فهو لا ينكر ما هو معتاد مألوف مثل طلوع الشمس من المشرق، وغروبها في جهة الغرب. فتلك أمور معتادة مألوفة لا عجب فيها. ولكن التعجب حالة سببها أن ترى الشيء غير المألوف فتدرك أنك لم ترى مثله، ويسبب لديك حالة العجب.

٢–إهدار مبدأ الألفة، فإن ما يسمي بالألفة يتضاد مع ما يمكن أن يطلق عليه عجيب.

وقد أكد الراغب الأصفهاني المعنى السابق بقوله: "العجب والتعجب حالات تنتاب الشخص وقت أن يكون جاهلا بالسبب الذي وراء الشيء"[٢] .

[١] أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور، لسان العرب، (مصدر سابق)، ج ١، صـ ٥٨٠

[٢] الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، الطبعة الاولى، تحقيق صفوان عدنان الداودي، دار القلم، بيروت،١٤١٢هـ، صـ ١٦٥

وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على أن مفهوم العجيب مرتبط بالإنكار وفقدان الألفة والإعتياد، فقد امتد من المعاجم في تراثنا العربي الاسلامي إلى أعمال المعجميين المعاصرين.

وخلاصة القول أن استعمالات العرب الفصحاء لكلمة العجيب تدور حول معنى واحد تقريبا، لا يخرج عن دلالات الإنكار والندرة والدهشة، كما نجد أنه لابد أن يكون مبالغا فيه؛ ليبلغ عالم العجب وإلا أصبح مألوفا وعاديا لا يثير أي دهشة أو استفهام؛ أي أن النفس تندهش وتستغرب ما يوجد في الكون من موجودات غير مألوفة، أو أي حادث أو مظهر من المظاهر العجيبة. ولعل تفسير ذلك مرجعه إلى أنه جميعا يحرصون على نقل استعمالات العرب بأمانة لنا؛ فلم نجد أنه بمقدرة واحد منهم أن يفترى على العرب كلامًا لم يرد عنهم، ولذلك اتفق المعجميون في النتائج لأنهم اتفقوا في المصادر.

ونجد أن استعمالات القرآن الكريم لكلمة العجيب ومشتقاتها لم تخرج عما ورد في المعاجم اللغوية؛ فقد تنزل بلغة العرب وعلى سننها فى كلامها ولذلك كانت استعمالاته جارية على نهج العرب.

وقد وردت الكلمة ومشتقاتها في عدة آيات من القرآن الكريم على النحو الآتي:-

- ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾[1]

ورد في جامع البيان للطبري تفسيره الاية بقوله:"" يقول تعالى ذكره: قالت سَارة لما بُشِّرت بإسحاق أنَّها تلد تعجبًا مما قيل لها من ذلك، إذ كانت قد بلغت السن التي لا يلد من كان قد بلغها من الرجال والنساء، وقيل: إنها كانت يومئذ ابنة تسع وتسعين

[1] سورة هود، الاية ٧٢

سنة، وإبراهيم ابن مائة سنة، و(يَا وَيْلَتَا)٩ كلمة تقولها العرب عند التعجب من الشيء والاستنكار للشيء، فيقولون عند التعجب: "ويلُ أمِّه رجلا ما أرْجَله" [١].

ويبدو ان العجيب في هذه الآية يتمثل فى ولادة السيدة سارة في هذه السن المتأخرة أمر عجيب غير معتاد أو مألوف من مثيلاتها؛ وهذا العجب يوجد عند المقارنة بما عليه الناس في واقعهم، لكنه لا يبدو عجيبا في سياق المعجزة الالهية؛ عندما يصدر الفعل عن الله سبحانه وتعالى الخلاق، العظيم، القادر على كل شئ.

- ﴿بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [٢]

ويفسر الطبري الاية بقوله " يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا كَذَّبَكَ يَا مُحَمَّدُ مُشْرِكُو قَوْمِكَ أَنْ لَا يَكُونُوا عَالِمِينَ بِأَنَّكَ صَادِقٌ مُحِقٌّ، وَلَكِنَّهُمْ كَذَّبُوكَ تَعَجُّبًا مِنْ أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ يُنْذِرُهُمْ عِقَابَ اللَّهِ مِنْهُمْ، يَعْنِي بَشَرًا مِنْهُمْ مِنْ بَنِي آدَمَ، وَلَمْ يَأْتِهِمْ مَلَكٌ بِرِسَالَةٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ"[٣].

فالعجيب في هذه الآية يتمثل في قولهم: كيف يكون لبشر مثلهم (من بني ادم) ان يتنزل عليه الوحي من بينهم؛ لينذرهم عقاب الله.

- ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [٤]

ويفسرها الطبري بقوله:" عَجِبَ الْمُشْرِكُونَ أَنْ دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَحْدِهِ، وَقَالُوا: يَسْمَعُ لِحَاجَاتِنَا جَمِيعًا إِلَهٌ وَاحِدٌ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ " وَكَانَ سَبَبُ قِيلِ هَؤُلَاءِ

[١] محمد بن جرير الطبري (٢٢٤ – ٣١٠هـ)، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق محمود محمد شاكر، دار التربية والتراث – مكة المكرمة، بدون تاريخ نشر، ج ٢، صـ٢٦٧ – ٢٦٩، ٢٧٣

[٢] سورة ق، الاية ٢.

[٣] محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (مصدر سابق)، ج٢، صـ ٤٠٢

[٤] سورة ص، الاية ٥

الْمُشْرِكِينَ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ قَالُوهُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَهُمْ: «أَسْأَلُكُمْ أَنْ تُجِيبُونِيَ إِلَى وَاحِدَةٍ تَدِينُ لَكُمْ بِهَا الْعَرَبُ، وَتَعْطِيكُمْ بِهَا الْخَرَاجَ الْعَجَمُ» فَقَالُوا: وَمَا هِيَ؟ فَقَالَ: " تَقُولُونَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالُوا (جَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا) تَعَجُّبًا مِنْهُمْ مِنْ ذَلِكَ "[1].

فإن موضع العجب في الآية الكريمة؛ الذي أوضحه المفسر الجليل الطبري؛ هو أنهم يعجبون كيف يدعوهم إلى إله واحد بدلا مما اعتادوا عليه من تعدد الآلهة؛ فذلك ما سمعوا به في الملة الأخرة.

• ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [2]

يقول الطبري " أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ أَنْزَلَ اللَّهُ وَحْيَهُ بِتَذْكِيرِكُمْ وَعِظَتِكُمْ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مُقِيمُونَ مِنَ الضَّلَالَةِ، عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ، لِيُنْذِرَكُمْ بَأْسَ اللَّهِ وَيُخَوِّفَكُمْ عِقَابَهُ " [3]

يقصد فى هذه الآية أن العجيب في هذا الموضع يجسده التساؤل: كيف يأتيهم ذكر وموعظة من ربهم على لسان رجل منهم ليتقوا الله ويخوفهم عقابه! فتلك منة كبيرة يذكرهم الله بها؛ ويمتن عليهم أن بعث إليهم رسولا من أنفسهم. وفي ذلك تيسير عليهم؛ لعلمهم به، ولعلمه بلغتهم وسننهم فى الكلام. لكن ذلك عجيب بالنسبة اليهم؛ فقد تخيلوا ان المعجزة تكمن فى ان ياتيهم رسول يتنزل من السماء؛ لا من بين انفسهم على الارض.

• ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1]

[1] محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (مصدر سابق)،ج٢٠، صـ ١٨

[2] سورة الأعراف، الاية ٦٩

[3] محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (مصدر سابق)، ج١٠، صـ٢٦٥

يقول الطبري في تفسير الآيات السابقة: "يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: وَإِنْ تَعْجَبْ يَا مُحَمَّدُ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الْمُتَّخِذِينَ مَا لَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ آلِهَةً يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِي، فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ"[٢]

فالتعجب في هذه الآية يتشكل في صورتين؛ الأولى: عجب يصدر من الكافرين؛ ويتمثل في إنكارهم ما جاء على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم سيرد عليهم من بعث أو خلق جديد لهم بعد الممات. والعجب الثاني: فهو ما يجب ان يصدر عن النبي صلي الله عليه وسلم إزاء إنكارهم نبوته، وإرسال الله سبحان وتعالى اياه الى قومه ليذكرهم بالآخرة. وربما كان ذكر الثاني وسيلة بلاغية لذكر الاول.

- ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾[٣]

يفسرها الطبري بقوله::يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَمْ حَسِبْتَ يَا مُحَمَّدُ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا، فَإِنَّ مَا خَلَقْتُ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمَا فِيهِنَّ مِنَ الْعَجَائِبِ أَعْجَبُ مِنْ أَمْرِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ"[٤]

فالعجيب هنا كما يؤولها الإمام الطبري في هذه الآية أن خلق السماوات والأرض وغيرهما من آيات الله أعجب من أمر أهل الكهف؛ لعله يقصد بذلك أن يوجه رسوله الكريم صلي الله عليه وسلم إلى التأمل فى الكون، وملاحظة العجائب الكثيرة التى تحيط بأمر خلقه. ثم انها وسيلة بلاغية أيضا لسرد قصة اهل الكهف.

[١] سورة الرعد، الاية ٥

[٢] محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (مصدر سابق)، ج١٣، صـ ١٣٢

[٣] سورة الكهف، الاية ٩

[٤] محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (مصدر سابق)، ج١٥، صـ١٥٥

• ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾[1].

يقول الطبري "حَدَّثَنَا الْحَسَنُ، قَالَ: أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، قَالَ: أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنْ قَتَادَةَ، فِي قَوْلِهِ: (وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا) فَكَانَ مُوسَى لَمَّا اتَّخَذَ الحوت سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا، يَعْجَبُ مِنْ سِرْبِ الْحُوتِ"، فالعجيب هنا أمر الحوت وسربه في البحر[2].

وتلك آية من آيات الله، وعلامة إلى رسوله، وأمر عجيب يمهد للقاء رجل عجيب هو العبد الصالح؛ الذي علمه الله من لدنه علم لم يعلمه احدا، واختبر به موسى عليه السلام.

العجيب اصطلاحا:-

ويمكن أن نلتمس الدلالة الاصطلاحية لكلمة العجيب فيما أورده العلماء المسلمون في مؤلفاتهم؛ مثلما فعل الإمام القزويني (ت٦٢٨هـ)، في كتابه "عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات"، والذي يعد من أهم ما تم تصنيفه في هذا المجال من الثقافة الإسلامية؛ إذ عرف خلاله العجيب والغريب وقدم خلاله أمثلة لها،لأغراض علمية جغرافية، ولأغراض أدبية إمتاعية ايضا؛ يقول القزويني:

"قالوا العجب حيرة تعرض للإنسان لقصوره عن معرفة سبب الشيء أو عن معرفة كيفية تأثيره فيه؛ مثاله أنْ الإنسان إذا رأى خليّة النحل ولم يكن شاهده قبل لكثرته حيره لعدم معرفة فاعله، فلو علم أنه من عمل النحل لتحيّر أيضاً من حيث أنَّ ذلك الحيوان الضعيف كيف أحدث هذه السداسيات المتساوية الأضلاع التي عجز عن مثلها المهندس الحاذق مع الفرجار والمسطرة، ومن أين لها هذا الشمع الذي اتخذت منه بيوتها المتساوية التي لا تخالف بعضها بعضاً كأنها أفرغت في قالب واحد، ومن أين

[1] سورة الكهف، الاية ٦٣

[2] محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (مصدر سابق)، ج ١٥، صـ٣١٨

لها هذا العسل، الذي أودعته فيها ذخيرة للشتاء، وكيف عرفت أن الشتاء يأتيها وأنّها تفقد فيه الغذاء، وكيف اهتدت إلى تغطية خزانة العسل بغشاء رقيق ليكون الشمع محيطا بالعسل من جميع جوانبه، فلا ينشفه الهواء ولا يصيبه الفأر، ويبقى كالبرنية المنضمة الرأس، فهذا معنى العجب، وكل ما في العالم بهذه المثابة. إلا أن الإنسان يدركه في زمن صباه عند فقد التجربة ثم تبدو فيه غريزة العقل قليلاً قليلاً وهو مستغرق الهم في قضاء حوائجه وتحصيل شهواته، وقد أنس بمدركاته ومحسوساته، فسقط عن نظره بطول الأنس بها، فإذا رأى بغتة حيواناً غريباً أو فعلاً خارقاً للعادات انطلق لسانه بالتسبيح فقال: سبحان الله، وهو يرى طول عمره أشياء تتحيّر فيها عقول العقلاء، وتدهش فيها نفوس الأذكياء"[١]

ونستنتج من النص السابق ما يأتي:-

١-إن العجيب حيرة تعرض للإنسان لقصوره عن معرفة سبب الشيء وكيفية تأثيره؛ لكونه نادرًا لم يعتده الإنسان ويفتقد الألفة به.

٢-الألفة هي العدو الأول للعجب، والاعتياد نقيض الدهشة، ويبطل معنى العجب.

٣-العجيب دال على قدرة الله لما فيه من فرادة وإحكام يدلان على القدرة المطلقة.

٤-يلاحظ المعرفة الشاملة الدقيقة التي امتاز بها القزويني في إدراك الموجودات والمخلوقات، وسائر المحسوسات.

٥-من الملاحظات المهمة للقزويني ما أدركه من أن العجيب يتحول بالألفة تدريجيا إلى المألوف؛ فالدلالة على العجب تبهت بالتدريج مع نمو الخبرة الإنسانية ويبدو هذا من قوله:

[١] زكريا بن محمد القزويني (ت ١٢٨٣هـ)، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، الطبعة الأولى، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ٢٠٠٠م، صـ ١٠

"وكل ما في العالم بهذه المثابة الا ان الانسان يدركه في صباه عند فقد التجربة ثم تبديه في غريزة العقل قليلا قليلا، لكن ضد ذلك لا يستقيم فلن يتحول المألوف الى عجيب بالنسبة للإنسان المدرك لذاته فالحركة من العجيب الى المألوف معتادة لكن الحركة من المألوف الى العجيب ممتنعة"[1].

ويقول القزويني في التعجيب من مخلوقات الله وقدرته غير المتناهية مخاطبا المتلقي بقوله:

"ثم لينظر إلى ما بين السماء والأرض من انقضاض الشهب والغيوم والرعود والبروق والصواعق والامطار والثلوج والرياح المختلفة المهاب وليتأمل السحاب الكثيف المظلم كيف اجتمع في جو صاف لا كدورة فيه، وكيف حمل الماء وتسخر الرياح، فإنّها تتلاعب به وتسوقه إلى المواضع التي أرادها الله تعالى فترش وجه الأرض وترسله قطرات متفاصلة لا تدرك قطرةٌ منها قطرة، فلو صبّه صباً لأفسد الزرع بخدشه وجه الأرض ويرسلها مقداراً كافياً لا كثيراً زائداً على الحاجة، فيعفن النيات ولا قليلا ناقصاً عن الحاجة، فلا يتم به النمو كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾. ثم إلى اختلاف الرياح، فإنَّ منها ما يسوق السحب ومنها ما ينشرها، ومنها ما يجمعها، ومنها ما يعصرها ومنها ما يلقح الأشجار ومنها ما يربي الزرع والثمار ومنها ما يجففها".[2]

إن القزويني عندما يندفع إلى التماس العجيب في البر والبحر؛ يكشف عن دوافعه الدينية؛ لعله متأثر في ذلك بقوله الله سبحانه وتعالى (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَ عَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا

[1] زكريا بن محمد القزويني، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، (مصدر سابق)، صـ١٣

[2] زكريا بن محمد القزويني، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، (مصدر سابق)، صـ١٤

سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّار) [1]. وغيره من أيات القران الكريم الداعية الى التأمل في الكون من أجل زيادة الإيمان؛ لأن في ذلك إجابة لأمر الخالق ابتداء، ولأن في ذلك استدلالا على قدرة الخالق ثانيا قال الله تعالى ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

فلعل هذه الآيات الكريمة ونظيراتها كانت وراء شمول نظرته الى العجيب؛ فقد دعت الآيات الى التفكر في عجائب البر والبحر. ولعلها كانت سببًا أساسيا في عناية المؤلف ونظرته في البحث عن العجيب، والتماس دقائقه.

[1] سورة آل عمران، الاية ١٩١